المبحث الثالث

التطورية الثقافية والاجتماعية للإنسان

يقول أحد المفكرين: «إن أعمق نمو للنفس لا يتحقق كما يطيب للناس أن يفترضوا اليوم في علاقة الإنسان بنفسه، بل في العلاقات بين الواحد والآخر، أي بين الناس، أي في المقام الأول في تبادل الاعتراف بالوجود - أعني في الاعتراف بوجود نفس أخرى، وفي معرفة أن المرء يوجد في ذاته الخاصة بواسطة الآخر - مع تبادل القبول والإيجاب والتأييد».

والإنسان لم يطرأ عليه من الناحية البيولوجية سوى تغير طفيف منذ أواخر العصور الحجرية القديمة، وقد ظل في الصورة نفسها أساساً من الناحية الوراثية، ولكن مظاهر حياته وبناء مجتمعاته تتغير بلا حدود، بل إن مفهوم التقدم ذاته يتضمن أن أحداث حياة الإنسان الاجتماعية لا تتكرر أبداً بالصورة نفسها، والتغير المستمر في حياة الإنسان يأتي من الاستجابات الخلاقة التي يبديها هو ومجتمعاته إزاء تحديات البيئة الكلية. ولكي يعيش لابد له من الاستجابة، ومن ثم تنشيط العمليات البيئية الكلية المؤدية إلى التكييف والتطور الخلاق، وفي هذا تميز الإنسان عن الأنواع كافة بحيازته على حضارة مادية وروحية، وبأنه يبدع هذه الحضارة ويتمتع بخيراتها؛ وبذلك كان الحيوان الوحيد الذي سمى نفسه بحق كائناً اجتماعياً وأخلاقياً.

إن العلماء المتطورين يختلفون في كثير من الأمور وبخاصة فيما يتعلق بتفاصيل العملية التطورية وعدد المراحل التي مر بها المجتمع والثقافة منذ البدء حتى الآن ولكنهم يتفقون على الأغلب أن الصفة الغالبة على سير الحضارة هي الارتقاء، وأن الحياة تسير بالضرورة لتحقيق مزيد من التقدم والرقي، والنظم الاجتماعية والمجتمعات الإنسانية ذاتها تقدمت وهي تتقدم بالضرورة من حالة التأخر والبدائية إلى التحضر والتمدن مارة بمراحل معينة يختلف عددها وخصائصها ومقوماتها من عالم لآخر، ولكنها تتفق في أن المرحلة اللاحقة تكون أعلى من السابقة، وأنها تهيئ الفرصة لقيام مرحلة أرقى منها هي ذاتها[1].

إن من أبرز العلماء الذين بحثوا في هذا الميدان العالم الأمريكي الشهير (لويس مورجان) الذي ذكر في كتابه «المجتمع القديم» أن العالم مرَّ بحقبتين كبيرتين هما: حقبة التوحش وحقبة البربرية قبل أن يصل إلى الحضارة الأوربية الحديثة. ثم يقسم كلا من هاتين الحقبتين بعد ذلك إلى ثلاث مراحل أخرى: دنيا ووسطى وعليا، وبذلك يكون المجتمع قد مر بحسب تقسيمه في المراحل التالية:

آ- مرحلة التوحش الدنيا، وتبدأ من طفولة البشرية.

ب- مرحلة التوحش الوسطى وتبدأ باستخدام النار، وكان الاقتصاد يعتمد فيها على صيد السمك.

---

(١) جون لويس، الإنسان والارتقاء، ترجمة عدنان جاموس، دار الجماهير، دمشق.

جـ- مرحلة التوحش العيا وتبدأ منذ اخترع الإنسان القوس والسهم، وبذلك كانت الحياة الاقتصادية تقوم في الأغلب على القنص.

د- مرحلة البربرية الدنيا وتبدأ باختراع الأواني الفخارية.

هـ- مرحل البربرية الوسطى التي تتميز بحفظ الحيوانات واستئناسها وزراعة الذرة والاعتماد على الري.

و- مرحلة البربرية العليا وتبدأ باكتشاف طريقة سبك الحديد، وبالتالي استخدام الأدوات والآلات الحديدية.

ز- وأخيراً وصلت الإنسانية إلى المرحلة الساميّة وهي مرحلة الحضارة الصحيحة التي تمتاز باكتشاف حروف الهجاء والكتابة وتمتد حتى عصرنا الحالي[1].

أما فيما يتعلق بوسائل العيش فإن (مورجان) يميز بين خمس طرائق انتحلها الإنسان في معاشه، وهو يرد اثنتين منها إلى حقبة التوحش، بينما ترجع الثلاث الأخرى إلى البربرية. وأولى هذه الوسائل يسميها (مورجان) بطريقة العيش الطبيعية، وذلك بجمع الفواكه والبذور والجذور في المنطقة التي يقطن فيها الإنسان، والوسيلة الثانية هي صيد السمك.

أما الوسائل الثلاث الأخرى فهي: الاعتماد على زراعة الحبوب في

(١) أحمد أبو زيد، المجتمع القديم عند لويس مورجان، مجلة تراث الإنسانية ص ٣٦.

obeikandl.com

الحدائق، والاعتماد على اللحم واللبن، ثم ممارسة الزراعة الواسعة في الجبال[١].

ومن العلماء أيضاً العالم الاقتصادي الألماني (كارل بيشر) الذي رأى أن الاقتصاد البشري مرَّ بثلاث مراحل قبل أن يصل إلى المرحلة الصناعية في أوروبا في القرن التاسع عشر، وفي أولى هذه المراحل الثلاث كانت حياة الإنسان تعتمد إما على الجمع والالتقاط، أو على قنص الحيوان، أو صيد السمك بحسب ظروف كل مجتمع على حدة، ثم انتقل الإنسان بعد ذلك إلى مرحلة الرعي، وأخيراً وصل إلى مرحلة الحياة المستقرة التي تعتمد على الزراعة[٢].

ولكن فكرة التطور بمعنى التقدم والارتقاء لم تسلم أيضاً من كثير من الانتقادات كما صادفت نظرية النشوء والارتقاء من حرب مسعرة لما تنته[*]، وأبرز المنتقدين لفكرة الارتقاء عدد من العلماء ورجال الدين بالذات، فقد رفض هؤلاء المعارضون تصور المجتمع البشري وهو يسير في خط التقدم الذي

---

(١) أحمد أبو زيد، تايلور، دار المعارف بمصر، ١٩٦٣، ص ٢٥.

(٢) المصدر ذاته، ص ٢٩.

(*) ما زال يوجد تشريع في ولاية / تينسي / بأميركا يحرم تدريس التطور، وفي سنة ١٩٢٥ جرت محاكمة لأحد المدرسين واسمه / سكويس / لأنه خالف قانون الولاية هذا، غير أن هذا القانون رغم استمرار بقائه فإنه - نتيجة التطور - لا يطبق.

وفي عام ١٩٧٨م سيطر الاتجاه الديني في مصر على طلاب الجامعة، وفاز المتشددون في هذا الاتجاه بأكثرية المقاعد القيادية لاتحادات الطلبة، وقد أخذت القيادات تطرح رأيها جهاراً وبإلحاح بلزوم حذف نظرية النشوء والارتقاء / لداروين / من المناهج التعليمية «انظر - خريف الغضب - محمد حسين هيكل ص ٣٠٢).

رسمه أصحاب هذا الرأي، ورأوا على العكس من ذلك أن الإنسان خلق في الأصل على درجة عالية نسبياً من الرقي الثقافي، ولكن هذه الثقافة الأولى الراقية تعرضت لبعض عوامل مضادة دفعت بها إلى التدهور والانحلال[1].

ورغم نقد المنتقدين فإن العلم يثبت كل يوم تطوراً اجتماعياً يعبر عن ارتقاء الإنسان، هذا الإنسان الذي أصبح نفسه عاملاً وقوة فعالة في التقدم التكنولوجي، وفي إعادة تنظيم الموجودات، وفي إيجاد الأيديولوجيات والنظم الحياتية والقواعد الأخلاقية، وبمبادئ التفكير العلمي.

إن تغير الجنس البشري والمجتمع من الناحية الاقتصادية والتكنولوجية أقوى بكثير من التغير الوراثي، والتغير الأهم هو الأول ولا سيما أن التغيرات التكنولوجية تصدر عن المتطلبات الاقتصادية وممارسة الإنتاج والمعارف العلمية. فقد تعلم الإنسان الطيران خلال خمسين سنة فقط، بينما استغرق الارتقاء البيولوجي حتى توصل إلى الأمر نفسه عن طريق التغيرات الوراثية إلى خمسين مليون سنة. والنظم الاجتماعية تتغير بسرعة كبيرة وبجذرية عميقة تجعلان من غير الممكن أن تتعلق هذه النظم بالتحولات الفجائية التي تطرأ على المورثات (الجينات)، وقد غير سكان جزيرة / مانوس / في المحيط الهادي خلال / ٢٠-٣٠/ عاماً ليس فقط أسلوب حياتهم، بل غيروا سلوكهم وقواعدهم ومقاييسهم

(١) أحمد أبو زيد، التطورية الاجتماعية، مجلة عالم الفكر الكويتية العدد ٤، العام ١٩٧٣، ص ٥٠.

الأخلاقية . . بشكل جذري . ولم يكن هذا أيضاً تغيراً وراثياً اجتماعياً[1] .

إن الهيئة الاجتماعية جسم حي، والقوة التي تدفع بالهيئة الاجتماعية إلى الرقي هي العقل، ويفترض بالعقل أن يكون قوة الابتداع والتجديد وعدو التقاليد الجامدة، والصراع بين القديم والجديد لا يخمد أواره، وفي هذا الصراع يتهم الجامدون على القديم خصومهم بفساد الأخلاق ويتسلحون بالقواعد القديمة للدين والعادات، ويتهم المجددون التقليديين بالرجعية والجمود، وتستمر الحياة ليصبح ما كان جديداً قديماً ويتولد جديد آخر، وتلك هي سمة التطور المستمر في المجتمع التي تكمن في جوهر النظام الارتقائي، هذا النظام الذي عمل الإنسان - بما حباه الله من إمكانات - على تطويره بالذات، وفي تغييره أحياناً تغيراً جذرياً، وانتقل موضوعياً من منهج المصادفات الذي يخضع له التغيير الوراثي والارتقاء الطبيعي إلى مناهج التطور الاجتماعية . ولم ينحصر ذلك في التقدم الاقتصادي والتكنولوجي فحسب، بل وفي تطور الحياة الاجتماعية كلها بما فيها السلوك الأخلاقي، وفاعلية الغرائز، وبحيث تصبح الأخلاق وسيلة من وسائل توطيد العلاقات الاجتماعية، إضافة إلى الوسائل الأخرى التي اقتضت وجودها الضرورات الاجتماعية كالقانون . . والأعراف . . والعادات . . إلخ .

ولم يعد المجتمع يتكيف مع ظروف البيئة المحيطة . بل أخذ ينظم

---

(١) جون لويس، الإنسان والارتقاء، ترجمة عدنان جاموس، ص ٥٥

ظروف هذه الهيئة ويخلق منها ما تقتضيه حياته المتطورة، واضطلعت الجهود المشتركة للأجهزة الاجتماعية بدور تحقيق هذه المهمة التي لا تستطيع القيام بها جهود أفراد منفردين.

وهكذا أصبح المحيط مطواعاً، وأصبحت الظروف مرنة لتقبل التغيير في طابع تطور الإنسان، وإيجاد ظروف عادة خلق الإنسان نفسه، وهنا يستقر مفتاح التطور وبقاء المجتمع الإنساني ونموه.

لقد أصبح الإنسان كائناً أخلاقياً منذ أزمنة موغلة في القدم، وكان ذلك بفضل التعاون والتبادل بين مختلف أعضاء الجماعة التي تعيش حياة مشتركة، وعلى ما صادفه تاريخ البشرية من نزاعات وصراعات وحروب دامية، فإن ذلك كله لم يوقف عجلة التطور في اتجاه المجتمعات نحو إدراك مزايا التعاون واتساع حلقة التلاحم الإنساني والاجتماعي، وما الأعراف والعادات والقيم التي ابتكرها الإنسان خلال مراحل تطوره سوى مظهر من مظاهر تطور الإنسان في المجتمع، وتطور هذا المجتمع عبر آلاف السنين في اتجاه الارتقاء والسمو، ورغم ظهور نقاط سوداء تعيق سرعة الارتقاء فإن علوم الإنسان ومعرفته وتجاربه في مختلف أقطار الأرض غدت تراثاً اجتماعياً مشتركاً يسهم في إقامة أنواع التحولات الاجتماعية أسرع وأكثر فعالية بكثير من الارتقاء الطبيعي، وتبرز كل يوم طاقة العقل الإنساني الذي ما هو سوى نتيجة لعملية الارتقاء، كما تبرز قدرة هذا العقل على مواجهة المواقف المتجددة في مشكلات الإنسانية ومعالجتها، وتؤكد على أن القواعد الأخلاقية والمبادئ والثقافات المختلفة هي جزء

جوهري من النشاط الاجتماعي الواعي، وأن منبع العقائد والقناعات الأخلاقية يكمن في حياة المجتمع، وأن أهداف هذه العقائد والقناعات ووظائفها نفعية، وأنها ليست حقائق أزلية خالدة، بل هي خاضعة للتطور والتبدل، وأن أي مجتمع يعدها قواعد جامدة لا حركة فيها هو مجتمع عقيم يعيق حركة التطور دون أن يستطيع منعها.

إن الأفكار الغيبية والآراء المتعددة التي حاولت في الماضي أن تخرج الإنسان وثقافته عن نطاق الطبيعة وتعامله معها لم تصمد أمام تطور وارتقاء فكر الإنسان وارتقائه وإدراكه لذاته، وبأنه وكل ما أبدعه بعمله أو شارك في إبداعه هو جوانب متنوعة للطبيعة، وأنه وكل ما يصنع يشكلان الطبيعة في أكثر مراحلها حياة وتطوراً وفعالية.

لقد أظهر الإنسان بصفته كائناً اجتماعياً أنه يعرف العالم ويمكنه التعامل معه، وأنه يدعم أركان الحياة الاجتماعية، وأنه بعلاقته مع عناصر العالم المحيط به قد أبدع الحضارة المبنية على الوجود العقلاني؛ ولهذا فإن الإنسان وكل ما أبدعه لا يخرجان عن نطاق عملية التطور التاريخي ولا يمكن عدها بأي حال شيئاً معزولاً عن الطبيعة أو معارضاً لها أو واقعاً فوقها.

يقول (تشاردن) في كتابه / ظاهرة الإنسان/ : «إن شلال النشاط العقلاني الذي انهمر فجأة هو اقتحام نوع جديد من أنواع الحيوان للعالم أخذ يسيطر على جميع أشكال الحياة الأخرى.

إن هذا السيل العارم من الحقول والمصانع والمعامل وهذا الإبداع الضخم المتنامي المادي والروحي ليس إلا تبشيراً بحدوث انقلاب في الحياة على الأرض يشمل الكوكب بأسره»[1].

(١) المصدر السابق، ص ٨٤.

obeikandl.com